

Humanities and Educational
Sciences Journal

ISSN: 2617-5908 (print)



مجلة العلوم التربوية
والدراسات الإنسانية

ISSN: 2709-0302 (online)

الثبات النفسي في القرآن الكريم
دراسة موضوعية تفسيرية لنماذج مختارة(*)

<https://doi.org/10.55074/hesj.vi56.1943>

دعاء بنت سداد محمد السعيد
الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن
قسم الدراسات الإسلامية بكلية الشريعة والقانون
جامعة تبوك - المملكة العربية السعودية

dalsaeed@ut.edu.sa

تاريخ قبوله للنشر 12/8/2026

<http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index>

(*) تاريخ تسليم البحث 2/7/2026

(*) موقع المجلة:

الثبات النفسي في القرآن الكريم دراسة موضوعية تفسيرية لنماذج مختارة

دعاء بنت سداد محمد السعيد

الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن

قسم الدراسات الاسلامية بكلية الشريعة والقانون

جامعة تبوك - المملكة العربية السعودية

الملخص

يتناول هذا البحث الثبات النفسي في القرآن الكريم، من خلال دراسة موضوعية تستقري الآيات القرآنية المتعلقة بهذا المفهوم، وتحلل دلالاتها في ضوء كتب التفسير؛ بقصد تأصيل مفهوم الثبات النفسي من المنظور القرآني، والكشف عن أسسه وأبعاده، وإبراز أثره في بناء الشخصية المؤمنة، كما يعالج البحث النماذج القرآنية التي تجلّت فيها معاني الثبات النفسي، بوصفها تطبيقات عملية للهداية القرآنية في مواجهة الشدائد والابتلاءات.

وتكمن مشكلة البحث في قلّة الدراسات التي تناولت الثبات النفسي بوصفه موضوعاً قرآنياً مستقلاً، إذ انصرفت أغلب الدراسات إلى معالجته من منظور نفسي أو اجتماعي، أو اقتصر على دراسة بعض المفاهيم المتصلة به، دون استقراء الآيات الواردة في بابهِ، أو الكشف عن بنيته القرآنية المتكاملة، وأساسه الإيمانية والتربوية والاجتماعية، وتحليلاته التطبيقية في النماذج القرآنية.

واعتمد البحث المنهج الاستقرائي والاستنباطي والتحليلي؛ من خلال تتبع الآيات المتعلقة بالثبات النفسي، وتحليلها في ضوء كتب التفسير، واستنباط دلالاتها، ثم تطبيق ذلك على نماذج مختارة من القرآن الكريم، هي: إبراهيم عليه السلام، ومريم عليها السلام، والنبي محمد ﷺ؛ لإبراز أثر المنهج القرآني في ترسيخ الثبات النفسي عند مواجهة الابتلاءات.

وقد خلص البحث إلى عدد من النتائج، من أبرزها أنّ الثبات النفسي في القرآن الكريم لا يعني انتفاء المشاعر الإنسانية الفطرية، وإنما يتمثل في القدرة على ضبط آثارها، والمحافظة على الاتزان النفسي في ظلّ الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه، كما تبين أنّ الثبات النفسي يقوم على منظومة متكاملة من الأسس الإيمانية والتربوية والاجتماعية، وأنّ النماذج القرآنية تمثل تطبيقاً عملياً لهذه الأسس في مواجهة مختلف صور الابتلاء وأوصى البحث بال العناية بالدراسات القرآنية المتخصصة في البناء النفسي للإنسان، والإفادة من الأسس القرآنية للثبات النفسي في إعداد البرامج التربوية والإرشادية التي تعزّز قدرة الأفراد على مواجهة الأزمات والتحديات المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الثبات النفسي، القرآن الكريم، التفسير الموضوعي، الطمأنينة، الشخصية المؤمنة.

Psychological Steadfastness in the Holy Qur'an A Thematic Exegetical Study of Selected Models

Dr. Duaa bint Saddam Mohammed Al-Saeed

Assistant Professor of Qur'anic Exegesis and Qur'anic Sciences

Department of Islamic Studies, College of Sharia and Law

University of Tabuk

Kingdom of Saudi Arabia

ABSTRACT

This study examines psychological resilience in the Holy Qur'an through a thematic approach that analyzes Qur'anic verses related to this concept in light of Qur'anic exegesis (tafsir). It aims to establish the Qur'anic concept of psychological resilience, identify its faith-based, educational, and social foundations, and demonstrate its role in shaping the believing personality through selected Qur'anic models.

The study addresses the scarcity of research treating psychological resilience as an independent Qur'anic theme, as most previous studies have approached it from psychological or social perspectives or have examined only related concepts. It adopts inductive, deductive, and analytical methods by collecting and analyzing relevant verses and applying the findings to the stories of Prophet Abraham, Mary, and Prophet Muhammad peace be upon them.

The findings reveal that psychological resilience in the Qur'an does not imply the absence of natural human emotions; rather, it is the ability to regulate them and maintain inner balance through faith in Allah and reliance upon Him. The study also concludes that psychological resilience is grounded in an integrated system of faith-based, educational, and social principles reflected in Qur'anic narratives. It recommends further Qur'anic studies on psychological development and the integration of these principles into educational and counseling program

Keywords: Psychological resilience; Holy Qur'an; Thematic Qur'anic exegesis; Tranquility; Believing personality.

مقدمة الدراسة:

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، وبعد:

فإنَّ من طبيعة الحياة أن تتعرَّض النفس الإنسانية لمواقف متعدِّدة من الشدَّة والابتلاء، وقد تُفضي شدَّة هذه المؤثِّرات إلى اضطرابها، واختلال توازنها، وضعف قدرتها على التعامل الرشيد مع المحن والمتغيِّرات، ومن ثمَّ تبرز حاجتها إلى مُقوِّماتٍ داخلية تمدُّها بالقوة والطمأنينة، وتعينها على ضبط انفعالاتها، والثبات في مواجهة التحديَّات، والاستمرار في أداء واجباتها من غير انخيار أو اضطراب.

وقد حظيت النفس الإنسانية بعناية ظاهرة في القرآن الكريم؛ لأنَّ الله تعالى، وهو خالقها، أعلم بأحوالها، وما يُصلحها، وما يعرض لها من ضعف واضطراب، ومن ثمَّ لم يقتصر الخطاب القرآني على تقويم السلوك الظاهر، بل تجاوز ذلك إلى بناء الإنسان من داخله؛ بإصلاح القلب، وتثبيت الفؤاد، وتهذيب المشاعر، وتعميق الصلة بالله تعالى، وتربية النفس على الصبر واليقين والتوكل، وبهذا البناء المتكامل يكتسب المؤمن قوَّةً داخلية تعينه على مواجهة الأزمات، واحتمال الشدائد، وضبط انفعالاته، والثبات على مبادئه وقيمه، وهو المعنى الذي يُعبِّر عنه في هذا البحث بـ"الثبات النفسي".

ولا يُراد بالثبات النفسي في المنظور القرآني انعدام التأثُّر بالمواقف، أو التجرُّد من مشاعر الخوف والحزن والضيق؛ فهذه انفعالات فطرية جُبلت عليها النفس الإنسانية، وقد عرض القرآن الكريم وقوعها للأنبياء والصالحين في مواطن الابتلاء، وإنَّما يتمثَّل الثبات في قدرة الإنسان على استيعاب هذه الانفعالات وضبط آثارها، بحيث لا تخرجه عن اتِّزانه، ومن ثمَّ فإنَّ الثبات النفسي يعبِّر عن رسوخ داخلي يحفظ للإنسان توازنه عند الشدائد، ويعينه على حسن التقدير والتصرُّف، مع بقاء قلبه متعلِّقاً بالله تعالى، مُستمدداً منه الطمأنينة والقوة.

وبناء على ما سبق فقد اخترت أن يكون موضوع هذا البحث: "الثبات النفسي في القرآن الكريم"، أناول فيه مفهوم الثبات النفسي في القرآن الكريم، وبيان أهميته، وتأسيس أسسه الإيمانية والتربوية والاجتماعية، ثم دراسة نماذج قرآنية تبرز أثر المنهج القرآني في بناء الشخصية المؤمنة، أسأل الله التوفيق والسداد.

مشكلة البحث:

تتمثَّل مشكلة البحث في ضعف الدراسات والكتابات التي تناولت "الثبات النفسي"؛ إذ يمكن القول بأنَّها اقتصرَت على قراءتها من منظور نفسي أو اجتماعي، دون البحث في جذور هذا الموضوع من خلال آيات القرآن الكريم، والنماذج التي يذكرها، كما أنَّ المعاني القرآنية المتَّصلة بالثبات النفسي تتوزَّع في آيات ومواقف متعدِّدة، مما

يستدعي جمع هذه الدلالات وتحليلها والكشف عن بنيتها المتكاملة، غير أنَّ الإفادة من هذه النماذج تقتضي دراستها دراسة تحليلية تكشف عن مقومات الثبات فيها، ومصادره، وآثاره في المواقف والسلوك.

وبناءً على ذلك، تتمحور مشكلة البحث حول التساؤلات التالية:

١- ما مفهوم الثبات النفسي، وما أهميته في ضوء القرآن الكريم؟

٢- ما أسس الثبات النفسي في القرآن؟

٣- ما هي نماذج الثبات النفسي في القرآن الكريم؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، أبرزها:

١- بيان مفهوم الثبات النفسي، وأهميته في ضوء القرآن الكريم.

٢- الوقوف على أسس الثبات النفسي في القرآن.

٣- دراسة وتحليل أبرز نماذج الثبات النفسي في القرآن الكريم.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- ارتباط هذا الموضوع بالقرآن الكريم؛ إذ يكشف عن خصوصية تصوُّره للثبات النفسي، بوصفه ثمرة للإيمان واليقين والتوكل، وأساساً لمواجهة الشدائد بآثَران وثبات.

٢- الحاجة إلى تأصيل مفهوم الثبات النفسي تأصيلاً قرآنياً يبرز مكانته في القرآن الكريم، ويكشف عن تكامل أبعاده الإيمانية والتربوية والأخلاقية والاجتماعية، بعيداً عن اختزاله في التفسير النفسي المجرد.

٣- ارتباط الموضوع بواقع الإنسان المعاصر، وما يشهده من ضغوط متزايدة وتحولات متسارعة، مما يؤكد الحاجة إلى استمداد مقومات الثبات والتوازن النفسي من هدايات القرآن الكريم.

٤- إبراز النماذج القرآنية بوصفها وسيلةً للتربية النفسية؛ إذ تكشف عن تجليات الثبات في مواقف الابتلاء، وتبرز أثر الإيمان في ضبط النفس، وتقديم صوراً عملية يُهتدى بها في بناء الشخصية المسلمة.

٥- الإسهام في الدراسات القرآنية الموضوعية؛ بجمع الآيات والمواقف المتصلة بالثبات النفسي، وتحليل دلالاتها، وإبراز أثرها في تزكية النفس وبناء الإنسان.

منهج البحث:

اتُّبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي التحليلي، وذلك باتِّباع الخطوات التالية:

١- تتبُّع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، وعزوها إلى سورها وأرقامها، مع كتابتها بالرسم العثماني.

٢- الوقوف على تفاسير هذه الآيات من أمَّهات الكتب، والنقل منها بما يتناسب مع الموضوع.

٣- تخرُّج الأحاديث النبوية وعزوها إلى مصادرها؛ فإن وجد الحديث في الصحيحين فيُكتفى بهما، وإلا خرَّج من كتب السنة المعتمدة، مع ذكر حكم العلماء عليه.

٤- وضع للمصادر والمراجع.

خطة البحث:

وقد قسّمت البحث إلى مقدّمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة:

المقدّمة: وتشمل: أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، وأهداف البحث، ومنهج البحث، وخطة البحث.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتتبّع لم أقف على دراسة مختصّة بالثبات النفسي في القرآن الكريم، إلا أنه توجد بعض الدراسات العامة حول بعض جوانب الموضوع، منها:

- ١- وسائل الثبات عند الفتن في ضوء سورة الكهف دراسة موضوعية، د. إبراهيم بن علي الحسن، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (١٨١)، وهو يتناول موضوع الثبات عند الفتن في سورة الكهف، وقد اعتمد الباحث المنهج الوصفي الاستقرائي، مستهدفاً استنباط وسائل الثبات عند الفتن من سورة الكهف، وقد تناول صوراً متعدّدة من الفتن، منها: الفتنة في الدين، والافتتان بالحياة الدنيا وزينتها، والفتنة عند وقوع القدر المكروه، وانتهى إلى إبراز أثر القرآن الكريم في معالجة النفس، ووقايتها من الفتن. وتلتقي هذه الدراسة مع دراستي في استمداد مقومات الثبات من القرآن الكريم، وإبراز أثر هداياته في بناء النفس ومواجهة الابتلاءات، غير أنّها اقتصرت على وسائل الثبات عند الفتن في سورة الكهف، بينما دراستي الثبات النفسي في القرآن الكريم من منظور أوسع؛ فيؤصّل مفهومه، ويبيّن أهميته وأساسه الإيمانية والتربوية والاجتماعية، ثم يدرس تجلّياته في نماذج قرآنية مختارة، هي: إبراهيم ومريم والنبي محمد عليهم الصلاة والسلام.
- ٢- النفس وأثر القرآن الكريم في تحقيق الأمن النفسي، أحمد بن عمر بن أحمد السيد، بحث منشور في مجلة «أبحاث» سنة (٢٠١٩م)، تناول مفهوم النفس ودلالاتها القرآنية وخصائصها، ودور القرآن الكريم في تربيتها، ووسائل تحقيق الأمن النفسي، وبعض التطبيقات الدالة على أثر القرآن في النفس، واعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي، وانتهى إلى تأكيد أثر الإيمان والقرآن في تحقيق الاستقرار النفسي وانعكاس ذلك على السلوك الإنساني.

وتفيد هذه الدراسة البحث الحالي في تأصيل أثر القرآن في بناء النفس وتحقيق استقرارها، إلا أنّها جعلت الأمن النفسي محوراً لها، ولم تتناول موضوع الثبات النفسي بتفاصيله، كما لم تجمع بين التأصيل النظري وتحليل نماذج قرآنية متعلّقة بالثبات النفسي.

- ٣- مفهوم التثبيت في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية، عادل الوادي، بحث منشور في مجلة الجامعة القاسمية للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية سنة (٢٠٢٥م)، درس مصطلح «التثبيت» في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، من خلال استقراء مواضعه وتحليل دلالاته المعجمية والنصية والمفهومية، وانتهى إلى ارتباطه بشبكة

من المفاهيم القرآنية، منها: الهداية والتأييد والرشد والتزكية، وأنه يدلُّ على ثباتٍ روحي ومعنويٍّ مُستمدٍّ من الله تعالى.

وهذه الدراسة دراسة مصطلحية تركز على مادة اللفظ واستعمالاتها في السياق القرآني، أما دراستي فهي دراسة موضوعية تتناول مفهوم الثبات النفسي وتحليلاته من مجموع الآيات القرآنية.

تمهيد: مفهوم الثبات النفسي، وأهميته.

المبحث الأول: أسس الثبات النفسي في القرآن، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأساس الإيماني.

المطلب الثاني: الأساس التربوي.

المطلب الثالث: الأساس الاجتماعي.

المبحث الثاني: نماذج من الثبات النفسي في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ثبات نبي الله إبراهيم عليه السلام.

المطلب الثاني: ثبات مريم عليها السلام.

المطلب الثالث: ثبات النبي ﷺ.

خاتمة: وفيها أبرز ما انتهى إليه البحث من نتائج وتوصيات.

المصادر والمراجع.

تمهيد: مفهوم الثبات النفسي، وأهميته

أولاً: مفهوم الثبات النفسي

يُعدُّ الثبات النفسي من المفاهيم الرئيسة التي حظيت باهتمام الباحثين في علم النفس والتربية؛ لما يمثِّله من أساسٍ في تكوين الشخصية الإنسانية القادرة على التكيف مع المتغيرات، ومواجهة المواقف، والضغوطات بكفاءة، واتزان.

وقد عرَّف علماء اللغة الثبات بأنَّ كلمة "ثبت" تدلُّ على دوام الشيء واستقراره، يقال: ثبت الشيء ثباتاً وثبوتاً، وأثبتته غيره وثبته، ويقال: أثبتته السُّقم، إذا لم يفارقه، وثبت الشيء يثبت ثبوتاً أي: دام واستقرَّ فهو ثابت (الجوهري، ١٤٢٠هـ، ٢٤٥/١، ابن فارس، ١٣٩٩هـ، ٣٩٩/١، الفيومي، د.ت، ٨٠/١).

ولا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللُّغوي، فقد عُرِّف الثبات في الاصطلاح بأنه: ضدُّ الزوال، أو: هو الاستقرار وعدم مفارقة المكان (المنّاوي، ١٤١٠هـ، ١١٥، البركتي، ١٤٠٧هـ، ٦٦، عبد المنعم، ١٤١٩هـ، ٥٠٣/١).

وأما النفس في اللغة، فتُطلق على عدّة معانٍ:

منها: الروح، يقال: خرجت نفسه أي: روحه بمعنى ماتت.

ومنها الإنسان بعينه، ومنه قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: ١): يعني آدم عليه السلام، ومنه قوله:

﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤) أي: يقتل بعضكم بعضاً.

ومنها: الدم، يقال: سالت نفسه أي: دمه.

ومنها: الجسد، ومنها: العين، يقال: أصابت فلانا نفس، ونفسه بنفس، إذا أصبته بعين" (الجوهري،

١٤٢٠هـ، ٣/٩٨٤، العوتبي الصّحاري، ١٤٢٠هـ، ٤/٣٩٦).

وأما في الاصطلاح، فقد قيل في تعريفها عدّة أقوال:

فقيل: المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان (الغزالي، د. ت، ٤/٣).

وقيل: هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سُميت النفس المطمئنة، وإذا لم يتمّ سكوتها، ولكنها صارت مُدافعةً للنفس الشهوانية، ومُعترضةً عليها سُميت النفس اللّوامة؛ لأنّها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه، وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان، سُميت النفس الأمّارة بالسوء" (الغزالي، د. ت، ٤/٣).

وقيل: "هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحسّ والحركة الإرادية" (المنائي، ١٤١٠هـ، ٣٢٧، البركي، ١٤٠٧هـ، ٢٣٠، الطبري، د. ت، ١٦/٤٣٢).

ومما سبق يمكن أن نستنتج مفهوم الثبات النفسي بأنّه: استقرار ورسوخ النفس على حالة من الطمأنينة والاتّزان، تُمكن الإنسان من المحافظة على سلامة تفكيره وانفعالاته وسلوكه، مع القدرة على مواجهة الشدائد والضغوطات دون اضطراب يُخلّ بتوازنه، أو يُضعف فاعليّته.

ثانياً: أهمية الثبات النفسي

تنبع أهميّة الثبات النفسي من كونه أحد المرتكزات الأساسية للصحة النفسية، والتوافق الشخصي، والاجتماعي؛ إذ يمثّل عاملاً محورياً في قدرة الفرد على المحافظة على اتّزانه الداخلي، واستقراره الانفعالي والسلوكي عند مواجهة المواقف المضاعفة، والأحداث المتغيّرة، ويمكن إبراز شيء من أهميته في حياة الإنسان من خلال ما يأتي:

– أنّه أساس تحقيق الطمأنينة والاستقرار الداخلي:

لا يستطيع الإنسان أن يعيش حياته كما ينبغي دون أن يحقّق الاستقرار الداخلي، ويُعدّ الثبات النفسي من أهمّ العوامل التي تُسهم في تحقيق هذا الأمر؛ إذ يمنح الفرد القدرة على مواجهة الأحداث والمتغيّرات دون اضطراب، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بالطمأنينة، وهي مرتبطة بعلاقة الإنسان بخالقه حيث يقول سبحانه:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، وهذا معنى الثبات والاستقرار للنفوس والقلوب، فعنى "تطمئن" أي: تسكن" (الطبري، د.ت، ١٦/٤٣٢).

— أنه من أعظم ما يقوي الإنسان على مواجهة الأزمات والتحديات:

على الرغم من أن الأزمات والتحديات تولّد الضغوطات، وترفع نسبة التوتر والاضطراب، إلا أن من أعظم ما يعين على تجاوزها والتكيف معها، ويحدّ من الآثار السلبية هو الثبات النفسي، وهذا ما نجده في قوله تعالى عن الصابرين: ﴿وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٦)، والصبر هو أحد مفاتيح وأركان الثبات النفسي، قال ابن عاشور في آخر المقطع: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ﴾ "وهذا الخبر في قوله: ومن يؤمن بالله يهد قلبه: إيماء إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب؛ لأنه يلزم من هدي الله قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب" (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٢٨/٢٨).

— أن الثبات النفسي يساعد في ضبط القرارات وترشيدها:

يُسهم الثبات النفسي في تعزيز القدرة على اتّخاذ القرارات الرشيدة؛ إذ إن استقرار النفس واثباتها يهيئان للفرد مناخاً نفسياً يسمح بالنظر المتأنّي في الوقائع والمعطيات، بعيداً عن تأثير الانفعالات العابرة أو الضغوط الطارئة، والنتيجة أنه كلما ازداد الفرد ثباتاً وطمأنينة كان أقدر على تقدير العواقب، والموازنة بين المصالح والمفاسد، واختيار البدائل المناسبة على أسس عقلانية وموضوعية، بخلاف من تغلب عليه الاضطرابات النفسية والانفعالات الحادة؛ فإنها كثيراً ما تُفضي إلى التسرع في الحكم، والخلل في التقدير، وسوء الاختيار.

ومن ثم يُعدّ الثبات النفسي من المقومات الأساسية التي تسند عملية اتّخاذ القرار، وتمنحها قدراً أكبر من الحكمة والرشد، ولعلّ من أعظم الشواهد على هذا قوله ﷺ: "لا يقضين حكم بين اثنين، وهو غضبان" [البخاري، ٢٦١٦/٦، ٦٧٣٩].

وقال الطيبي معقفاً على الحديث: "أي: لا ينبغي للحاكم أن يحكم في حال الغضب؛ لأنه يمنعه من الاجتهاد والفكر" (الطيبي، ١٤١٧هـ، ٨/٢٥٩٤).

المبحث الأول: أسس الثبات النفسي في القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأساس الإيماني

لا يشكُّ مسلمٌ في أنَّ الإيمان بالله تعالى الركيزة الأولى التي يقوم عليها البناء النفسي للإنسان، وهو الأساس الذي تستمدُّ منه النفس طمأنينتها واستقرارها وقدرتها على مواجهة المتغيِّرات والأزمات، وإذا كانت النظريات النفسية المعاصرة تبحث عن مصادر الأمن النفسي، والتوازن الداخلي في جملة من العوامل الذاتية أو الاجتماعية، فإنَّ القرآن الكريم يربط الثبات النفسي ابتداءً بسلامة العلاقة بين العبد وربِّه، ويجعل قوة الإيمان ومنزلته في القلب من أعظم الأسباب المؤلِّدة للطمأنينة والسكينة والثبات.

وقد قرَّر القرآن الكريم هذه الحقيقة في مواضع كثيرة، فجعل الإيمان سبباً مباشراً لاستقرار القلوب وطمأنينتها، وثبات النفس ورسوخها، ومن أبرز الآيات في ذلك:

- ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، حيث تكشف هذه الآية عن ارتباط وثيق بين الإيمان والطمأنينة، والثبات النفسي؛ إذ إنَّ القلب المؤمن يدرك أنَّ جميع الأحداث تجري وفق حكمة الله تعالى وتقديره، فينخفض مستوى القلق والاضطراب الناتج عن الخوف من المستقبل أو الحزن على الماضي، ويحلُّ محله شعورٌ بالسكينة والرضا والثقة بالله عزَّ وجلَّ، وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، ومعنى الثبات والاستقرار، والمعنى: ألا بذكر الله تسكن القلوب، وطمأنينة القلب بزوال الشكِّ منه، واستقرار اليقين فيه " (البغوي، ١٤١٧هـ، ٢٠/٣، النسفي أبو حفص، ١٤٤٠هـ، ٦٣/٩، القرطبي، ١٣٨٤هـ، ٣١٥/٩).

قال السَّمْعاني: "وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ٢٨)، أي: تسكن قلوبهم بذكر الله، وقيل: تستأنس قلوبهم بذكر الله، والسكون باليقين، والاضطراب بالشك، قال الله تعالى في شأن المشركين: ﴿وَإِذَا دُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ (الزمر: ٤٥)، أي: اضطربت، وقال في المؤمنين ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، (السَّمْعاني، ١٤١٨هـ، ٩٢/٣).

- ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢)، ووجه دلالة الآية: أنَّ من أعظم آثار الإيمان في بناء الثبات النفسي أنَّه يمنح الإنسان رؤيةً تفسيريةً متكاملةً للوجود والحياة والابتلاء؛ فالؤمن لا ينظر إلى الأحداث على أنَّها وقائع عشوائية أو صدف مجرَّدة، وإنما يراها جزءاً من سنن الله تعالى الجارية في الكون؛ ولذلك يواجه الشدائد والمصائب بفكرة تختلف عن غيره؛ إذ يستحضر أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن

ليصيبه، وأنَّ كلَّ ما يقدره الله تعالى واقعٌ بعلمه وحكمته وعدله، ولا شكَّ أنَّ هذا من أعظم ما يولّد الثبات والاستقرار النفسي الداخلي، فالإيمان بالقدر لا يقتصر أثره على الجانب العقدي، بل يمتدُّ لبؤدِّي وظيفته نفسية عميقة تتمثّل في تخفيف حدّة الصدمات، وتقوية القدرة على التكيف مع الأزمات، قال الزمخشري معلقاً على الآية الكريمة: "يعني أنكم إذا علمتم أنَّ كلَّ شيءٍ مقدّر مكتوبٌ عند الله قلَّ أساكم على الفائت، وفرحكم على الآتي؛ لأنَّ من علم أنَّ ما عنده معقودٌ لا محالة: لم يتفاجم جزعُه عند فقده؛ لأنه وطّن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أنَّ بعض الخير واصلٌ إليه، وأنَّ وصوله لا يفوته بحال: لم يعظم فرحه عند نبيله" (الزمخشري، ١٤٠٧هـ، ٤٧٩/٤، ابن عطية، ١٤٢٢هـ، ٢٦٨/٥، الرازي، ١٤٢٠هـ، ٤٦٨/٢٩).

- ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦٢-٦٣)، ووجه دلالة الآية: أنَّها تبين أنَّ الأمن والثبات النفسي الحقيقي ثمره من ثمار الإيمان، وأنَّ القلب كلما ازداد تعلُّقاً بالله تعالى ازداد تحرُّراً من أسباب الاضطراب النفسي، والخوف والقلق، سواء في الدنيا أو في الآخرة، قال ابن عطية: "يحتمل أن يكون في الآخرة، أي لا يهتمون بهمّهم، ولا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك، ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا، أي: لا يخافون أحداً من أهل الدنيا ولا من أعراسها ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأوّل أظهر، والعموم في ذلك صحيح لا يخافون في الآخرة جملة، ولا في الدنيا الخوف الدنيوي الذي هو في فوت آمالها، وزوال منازلها، وكذلك في الحزن" (ابن عطية، ١٤٢٢هـ، ١٢٨/٣).

يتبين من خلال المنهج القرآني أن الثبات النفسي يرتكز على منظومة متكاملة أساسها قوة الإيمان بالله تعالى، والتسليم له، والثقة بحكمته، واستحضار التوكل عليه، وقد بيّنت الآيات الكريمة أن من أعظم الأسباب التي تمنح المرء القدرة على الثبات عند المحن ذكر الله تعالى واستحضار معاني الإيمان به.

المطلب الثاني: الأساس التربوي

من أسس الثبات النفسي في القرآن الكريم الأساس التربوي؛ إذ لا يتحقّق الثبات النفسي في المنظور القرآني بمجرد المعرفة النظرية بالحقائق الإيمانية، بل يحتاج إلى بناءٍ تربوي متين، يحوّل تلك المعارف إلى خصائص راسخة، ومفاهيم عميقة متجذّرة.

وقد غني القرآن الكريم بتربية الإنسان تربيةً شاملة، تستهدف إعادة تشكيل نظريته إلى ذاته والحياة والكون من حوله، بما يجعله أكثر قدرة على مواجهة الأحداث، والمتغيّرات دون اضطراب أو اُخيار، ومن ثمّ فإنَّ الأساس التربوي للثبات النفسي في القرآن الكريم لا يتمثّل في تعليم الإنسان كيفية مقاومة الأزمات فحسب، وإنما في إعادة بناء رؤيته للحياة كلّها؛ بحيث يفهم طبيعة الابتلاء، ويدرك غاية وجوده، ويتعامل مع الأحداث وفق سنن الله الجارية في الكون، فتتشكّل لديه شخصية متوازنة تمتلك القدرة على الصبر والثبات والتكيف مهما تغيّرت الظروف، وتعاقبت المحن، ومن أبرز مظاهر هذا الأساس التربوي ما يأتي:

أولاً: التربية على الصبر

حيث إنَّ القرآن الكريم جعل الصبر خُلُقًا مركزيًا في بناء الشخصية المؤمنة؛ لأنَّ الصبر يمثِّل القدرة العملية على تحمُّل المشاقِّ، ومقاومة دوافع الجزع والاضطراب عند وقوع المكروهات، ولذلك تكرر الأمر بالصبر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، وقال تعالى: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)، وقال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ { (الأنفال: ٤٦)، فالصبر في الميزان القرآني ليس مجرد احتمالٍ للألم، بل هو تدريبٌ تربويٌّ مستمرٌّ للنفس على ضبط الانفعالات، ومواجهة الصعوبات دون اغتيال أو اضطراب، قال الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥): "كأنَّه قيل: واستعينوا على ترك ما تحبون من الدنيا، والدخول فيما تستثقله طبايعكم من قبول دين محمد ﷺ بالصبر أي: يحبس النفس عن اللذات، فإنكم إذا كلَّفتُم أنفسكم ذلك مُرِئت عليه، وخفَّ عليها" (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٣/٤٩٠).

ثانيًا: التربية على مجاهدة الأهواء والشهوات

فقد اعتنى القرآن الكريم بتربية النفس على مجاهدة الأهواء والشهوات؛ لأنَّ الاستسلام للربغبات العابرة يجعل الإنسان أسيرَ انفعالاته ومؤثراته الخارجية، فيفقد قدرته على الثبات والائتزان النفسي، ولهذا أثنى الله تعالى على من يملك زمام نفسه ويضبط رغباتها، فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠-٤١)، والمعنى: "وأما من خاف مسألة الله إِيَّاه عند وقوفه يوم القيامة بين يديه، فاتَّقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ونهى النفس عن الهوى يقول: ونهى نفسه عن هواها فيما يكرهه الله، ولا يرضاه منها، فزجرها عن ذلك، وخالف هواها إلى ما أمره به ربه، فإنَّ الجنة هي المأوى، أي: فإنَّ الجنة هي مأواه ومنزله يوم القيامة" (الطبري، د.ت، ٢٤/٢١٢).

ثالثًا: التربية على كظم الغيظ وضبط النفس

وهذه من أبرز معالم التربية القرآنية على الثبات النفسي، حيث يُرِي القرآن النفس على ضبط الانفعالات، والتحكُّم في ردود الأفعال عند المواقف المثيرة للغضب أو الاستفزاز، كما في قول تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، والكظم في اللغة يدلُّ على الإمساك والجمع للشئ، يقال: كظم غيظه يكظمه كظمًا، أي: رَدَّه وحبسه" (ابن فارس، ١٣٩٩هـ، ٥/١٨٤، ابن سيده، ١٤٢١هـ، ٦/٧٨٥).

فالثبات النفسي لا يظهر في أوقات الراحة والاستقرار بقدر ما يظهر في قدرة الإنسان على التحكُّم في انفعالاته عند المواقف الحرجة، ومن ثم كان كظم الغيظ والعفو من أهم الوسائل التربوية التي تغرس الاتزان والثبات النفسي، قال الراغب الأصفهاني: "وأجلُّ الناس شجاعة، وأفضلهم مجاهدة، وأعظمهم قوة من يكظم الغيظ، وعلى ذلك دلُّ قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)" (الراغب الأصفهاني، ١٤٢٨هـ، ٢٤٣).

يكشف التأمل في المنهج التربوي القرآني أن بناء الثبات النفسي لا يتحقق دفعةً واحدةً، بل ينشأ من تربية النفس على الصبر، ومجاهدة الهوى، وضبط الانفعالات، حتى يصبح الإنسان أكثر قدرة على الثبات، وبذلك تتجلى حكمة القرآن في بناء شخصية مؤمنة، تمتلك من قوة النفس ما يعينها على مواجهة تقلبات الحياة بثبات.

المطلب الثالث: الأساس الاجتماعي

يُعَدُّ الأساس الاجتماعي أحد المرتكزات الرئيسة التي أقام عليها القرآن الكريم بناء الثبات النفسي؛ ذلك أن الإنسان في التصور القرآني ليس كياناً فردياً مستقلاً عن محيطه، وإنما هو جزء من بنية اجتماعية تتفاعل مكوناتها في التأثير والتأثر، وتنعكس آثارها على استقراره النفسي واتزانه الانفعالي، ومن هنا جاءت العناية القرآنية ببناء المجتمع المؤمن، وتوثيق أواصر الأخوة، وإشاعة معاني التكافل والتراحم والتعاون؛ لأن النفس البشرية تزداد قوةً وثباتاً كلما وجدت بيئة اجتماعية صالحة تحتضنها، وتساندها عند الشدائد، وتعينها على مواجهة أعباء الحياة وتقلباتها. وقد جعل القرآن رابطة الإيمان أساساً لهذه الأخوة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، أي: متآخون على الإسلام بعضهم أولياء بعض، والمراد أخوة الدين؛ فإنها أثبتت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين" (القرطبي، ١٣٨٤هـ، ٣٢٢/١٦، النسفي أبو حفص، ١٤٤٠هـ، ٥٠٧/١٣).

فجاءت الآية بأسلوب الحصر؛ للدلالة على قوة هذه الرابطة ومكانتها، حتى صارت الأخوة من لوازم الإيمان وآثاره، وهذه الأخوة ليست مجرد رابطة وجدانية، بل نظاماً اجتماعياً متكاملًا يُشعَى بين أفراد التناصر والتراحم والتعاون، ويقضي على أسباب الفرقة والتنازع التي تهدد استقرار المجتمع وأمنه النفسي، ولعظيم هذه النعمة وأثرها في الثبات النفسي امتنَّ الله تعالى على المؤمنين من الأنصار، وأمرهم أن يذكروها، وهي ألفة الإسلام، واجتماع كلمتهم عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، والعداوة التي كانت بينهم هي عداوة الحروب التي كانت بين الحيين من الأوس والخزرج في الجاهلية قبل الإسلام، فذكرهم جلَّ ثناؤه إذ وعظهم، ودكَّهم عظيم ما كانوا فيه في جاهليتهم من البلاء والشقاء بمعادة بعضهم بعضاً وقتل بعضهم بعضاً، وخوف بعضهم من بعض، وما صاروا إليه بالإسلام واتباع الرسول ﷺ، والإيمان به وبما جاء به، من الائتلاف والاجتماع، وأمن بعضهم من بعض، ومصير بعضهم لبعض إخواناً، وما ذلك إلا لعظيم منَّة الإخوة والاجتماع" (الطبري، د. ت، ٧٧/٧، النسفي أبو حفص، ١٤٤٠هـ، ١٨٧/٤، الزمخشري، ١٤٠٧هـ، ٣٩٥/١).

ومما يُبرِّز أثر الأساس الاجتماعي في تعزيز الثبات النفسي ما قصَّه الله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام حين استشعر ثقل الرسالة وعظم التحديات، فسأل ربه أن يجعل له معيناً يؤازره من أهله، فقال: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدَّ بِهِ أَرَى ﴿٣١﴾ (طه: ٢٩ - ٣١)، فموسى عليه السلام - مع كمال يقينه بالله - طلب المعاضدة البشرية؛ لأنَّ الشُّنن الإلهية جرت بأنَّ الدعم الاجتماعي من أسباب تقوية النفس، وتثبيت القلب، ومضاعفة القدرة على مواجهة الأعباء، جاء في الكشف: "لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى لعنه الله عرف أنه كُلفَ أمراً عظيماً وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح، فاستوهم ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه، ويجعله حليماً حمولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه، وما يصحبها من مزاولة معاطم الشؤون، ومقاساة جلائل الخطوب، والوزير من الوزر؛ لأنَّه يتحمَّل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر؛ لأنَّ الملك يعتصم برأيه ويلجئ إليه في أموره، أو من المؤازرة وهي المعاونة" (الزمخشري، ١٤٠٧هـ، ٣/٦٠-٦١).

وهذا المعنى مُتَقَرَّرٌ أيضاً في موضع آخر من كتاب الله تعالى حيث أمر الله تعالى نبيه ﷺ بلزوم جماعة الصالحين ومُصاحبتهم، فقال سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: احبسها وثبَّتها، فهي تدلُّ على أنَّ ملازمة البيئة الصالحة تحتاج إلى مجاهدة، لكنَّها في المقابل تُورث النفس قوَّةً وثباتاً واستقامة" (أبو حيَّان، ١٤٢٠هـ، ٧/١٦٦، النسفي أبو البركات، ١٤١٩هـ، ٢/٢٩٨، ابن عادل الدمشقي، ١٤١٩هـ، ١٢/٤٦٨).

خلاصة ما سبق أن القرآن الكريم لم يجعل الثبات النفسي مسؤولية فردية فحسب، بل أقامه على أسس اجتماعية، تقوم على الأخوة والتعاون والمساندة والصحبة الصالحة، لما لها من أثر عظيم في تعزيز القدرة على مواجهة الشدائد. وبذلك يتكامل البناء القرآني في إعداد الإنسان إعداداً يحقق له التوازن النفسي في مختلف الظروف والأحوال.

بعد استقراء ما سبق عرضه، يظهر أن معالجة القرآن لمسألة الثبات النفسي انتظمت في بناء متكامل للجوانب الإيمانية والتربوية والاجتماعية، لتؤدي دوراً فاعلاً في ترسيخ معاني الصبر مع المتغيرات، وبهذا المنهج المتكامل يرتقي الإنسان إلى دائرة الوعي بها والتعامل معها في ضوء الإيمان وحسن الصلة بالله تعالى.

المبحث الثاني: نماذج الثبات النفسي في القرآن الكريم

المطلب الأول: ثبات نبي الله إبراهيم عليه السلام

يمثلُ ثباتُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام أحدَ النماذج القرآنية المركزية في بناء مفهوم الثبات النفسي؛ فقد عرض القرآن الكريم شخصيته في سياقات ابتلاءاتٍ متعدّدة، تداخل فيها ضغطُ المجتمع، وسلطانُ العادة، وهيبَةُ السلطة، وقوَّةُ العاطفةِ الأسرية، ومع ذلك ظلَّ موقفه عليه السلام قائماً على اليقين، مستنداً إلى البرهان، متَّجهاً إلى الله تعالى دون اضطراب أو تردّد، قال الفخر الرازي مبيِّناً مقام نبيِّ الله إبراهيم: "اعلم أنَّه سبحانه كثيراً ما يحتجُّ على مشركي العرب بأحوال إبراهيم عليه السلام؛ وذلك لأنَّه يعترف بفضلِه جميعُ الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضلِه مُقرِّين بأنَّهم من أولاده، واليهود والنصارى والمسلمون كلُّهم معظِّمون له معترفون بجلالة قدره، فلا جرم ذكر الله حكاية حاله في معرض الاحتجاج على المشركين.

واعلم أنَّ هذا المنصب العظيم وهو اعترافُ أكثر أهل العلم بفضلِه وعلوُّ مرتبته لم يتفق لأحد كما اتَّفَق للخليل عليه السلام، والسبب فيه أنَّه حصل بين الرّبِّ وبين العبد مُعاهدة، كما قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة: ٤٠)، فإبراهيم وفيَّ بعهد العبودية، والله تعالى شهد بذلك على سبيل الإجمال تارة، وعلى سبيل التفصيل أُخرى، أما الإجمال ففي آيتين:

إحداهما: قوله: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٢٤)، وهذه شهادة من الله تعالى بأنه تمَّ عهد العبودية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِئْ قَالَ أَسَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١).

وأما التفصيل: فهو أنه عليه السلام ناظر في إثبات التوحيد، وإبطال القول بالشركاء والأنداد في مقامات كثيرة" (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٩/١٣).

ويظهر أوَّل ملامح هذا الثبات في موقفه من الانحراف العقدي الذي كان عليه قومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ أَتَتَّخِذُ آبَاءَ الْعَرِيفَةِ آلِهَةً إِلَّا أَنَا عَبْدٌ لِّمَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ لَدُنِّي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الأنعام: ٧٤)، فالآية تكشف عن وعي إبراهيم عليه السلام بحقيقة الخلل العقدي في بيئته، كما تكشف عن قدرته على مواجهة هذا الخلل بلغة صريحة، لا تحايي القراية، ولا تخضع لسلطان الموروث الاجتماعي.

وقد سلك إبراهيم عليه السلام في ثباته ومواقفه طابعاً حجاجياً واضحاً؛ إذ كان يخاطب قومه بما يوقظ عقولهم، ويكشف تناقض تصوُّراتهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٢)، فهذا السُّؤال لا يُراد به مجرد الاستفهام، وإنما يُراد به زعزعة الألفة النفسية مع الباطل، وإخراج القوم من أسر التقليد إلى مقام النظر والمراجعة، وفي ذكر هذا الموقف في القرآن الكريم احتجاجٌ على مشركي العرب بأحوال إبراهيم ومحاجته لأبيه وقومه؛ إذ إنَّهم كانوا يعظِّمون إبراهيم عليه السلام ويعترفون بفضلِه،

ولهذا كان هذا السياق؛ ليبين موقفه من قضية التوحيد، وثباته أمام قرابته وقومه (الحازن، ١٤١٥هـ، ١٢٥/٢، الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٩/١٣، القمي النيسابوري، ١٤١٦هـ، ١٠٣/٣).

ويتأكد هذا المعنى في موقفه من الأصنام، حين أقام على قومه حجة عملية تكشف عجز معبوداتهم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَيْبَرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٨)، والمعنى: أنهم لما انطلقوا إلى عيدهم، رجع إبراهيم إلى بيت الأصنام، وجعل يكسره بنفأس في يده، حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس في عنقه، فكسر الأصنام إلا أكبرها، فذلك قوله: ﴿إِلَّا كَيْبَرًا لَهُمْ﴾ (الأنبياء: ٥٨)، (الزجاج، ١٤٠٨هـ، ٣٩٦/٣، الواحدي، ١٤١٥هـ، ٢٤٢/٣، السمعاني، ١٤١٨هـ، ٣٨٩/٣).

ثم جاء إلزامه لهم بقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَتُؤْتُهُمْ إِن كَانُوا يَنْطَفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٣)، وليس المقصود من ذلك مجرد المجادلة، بل حملهم على مواجهة التناقض الكامن في عقيدتهم؛ فإن كانت هذه الأصنام آلهة، فالأصل أن تدفع عن نفسها أو تنطق بما وقع لها، فإذا عجزت عن ذلك بطل ادعاء ألوهيتها، جاء عند السمعاني: "أما قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ أي: على زعمكم واعتقادكم، وهو على وجه إلزام الحجة" (السمعاني، ١٤١٨هـ، ٣٨٩/٣).

وقال البغوي: "وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم، فذلك قوله: فسئلوهم إن كانوا ينطقون، حتى يخبروا بمن فعل ذلك بهم" (البغوي، ١٤١٧هـ، ٢٩٣/٣).

ثم يستمر ثبات إبراهيم عليه السلام النفسي أمام آلهة الكفر والعناد، فلما عجز القوم عن دفع حجته، انتقلوا بعدها من مقام البرهان إلى استخدام القوة، فقالوا: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ٦٨)، وهنا يبلغ الثبات النفسي ذروته؛ لأن الابتلاء لم يعد مقتصرًا على المخالفة الاجتماعية أو الخصومة الفكرية، بل صار تهديدًا مباشرًا للنفس والحياة، قال الزمخشري: "أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بإهلاكه: وهكذا المبطل إذا فرغت شبهته بالحجة وافتضح، لم يكن أحد أبغض إليه من الحق، ولم يبق له مفرع إلا مُناصبته، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة" (الزمخشري، ١٤٠٧هـ، ١٢٥/٣).

وفي الذي أشار عليهم بذلك: قولان للمفسرين:

الأول: أنه رجلٌ من أعراب فارس، أي: أكراد فارس، قاله ابن عمر، ومجاهد، وابن جريج.

الثاني: أنه هيزون فحسف الله به الأرض وهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (الماوردي، د.ت، ٤٥٣/٣، النسفي أبو حفص، ١٤٤٠هـ، ٤١١/١٠، الزمخشري، ١٤٠٧هـ، ١٢٥/٣).

ومع ذلك لم يذكر القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام اضطرابًا ولا تراجعًا، بل ثابتًا واثقًا بالله تعالى، وقد أورد الطبري وغيره أن جبريل جاء إلى إبراهيم • وهو في المنجنيق ليلقي به في النار، قال: يا إبراهيم! ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، فقال: "حسي من سؤال علمه بحالي" (الطبري، د.ت، ٤٦٧/١٨).

النعلي، ١٤٢٢هـ، ١٨/١٥٢، ابن عطية، ١٤٢٢هـ، ٤/٨٨، ابن الجوزي، ١٤٢٢هـ، ٣/٢٠٠)، فجاء الجواب الإلهي مؤكداً عناية الله بأوليائه: ﴿فَلَمَّا يَنْتَرُكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩).

ومن صور ثباته عليه السلام وهي تمثل أعمق صور الثبات النفسي في حياة إبراهيم عليه السلام ابتلاء الذبح، حيث بلغ الامتحان غايته في ملامسة أرقّ مواضع النفس البشرية، وهو موضع الأبوة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ (الصافات: ١٠٢)، فهذا الابتلاء لا يختبر مجرد القدرة على مقاومة الخصوم، بل يختبر كمال التسليم لله تعالى عند تزامم الأمر الإلهي مع دواعي العاطفة، وقد جاء موقف إبراهيم عليه السلام ثابتاً مسلماً، دالاً على رسوخ العبودية، كما جاء موقف الابن مؤيداً لهذا المعنى في قوله: ﴿قَالَ يَكُنْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢)، ولذلك وصف القرآن هذا الموقف بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (الصافات: ١٠٦)؛ أي: الاختبار الظاهر لإظهار ما علم الله على ما علم الله؛ لأنه ابتلاء يكشف صدق التسليم، ويميز بين مجرد الدعوى وحقيقة الامتثال (النسفي أبو حفص، ١٤٤٠هـ، ١٢/٤٣٢، الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٦/٣٥٠، ابن كثير، ١٤٢٠هـ، ٧/٣٠).

وحكى في قصة الذبح أنه عليه السلام لما أراد ذبحه قال: يا بُني! خذ الحبل والمديّة، وانطلق بنا إلى الشَّعْب نَحْتَطِبْ، فلما توسَّط الشَّعْب أخبره بما أُمِر به، فقال: يا أبت! اشدُّد رباطي؛ كيلا أضطرب، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيءٌ من دمي فتراه أُمِّي فتحنن، واستجدَّ شفرتك، وأسرع إمرارها على حلقي؛ ليكون أهون فإنَّ الموت شديد، وقرأ على أُمِّي سلامي، وإن رأيت أن تردَّ قميصي على أُمِّي فافعل فإنَّه عسى أن يكون أسهل لها، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بُني على أمر الله، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه، وهما يبيكان ثم وضع السكين على حلقه، فقال: كُفِّنِي على وجهي، فإنَّك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة، وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل، ثم وضع السكين على حلقه، فلم تعمل؛ لأنَّ الله ضرب صفيحةً من نحاس على حلقه، فقال له: كُفِّنِي على وجهي فإنَّك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقةً تحول بينك وبين أمر الله، ففعل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، وثودي: يا إبراهيم! قد صدقت الرؤيا (النسفي أبو حفص، ١٤٤٠هـ، ١٢/٤٣٣، الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٦/٣٥١).

تكشف لنا مواقف نبي الله إبراهيم عليه السلام أن الثبات الحق يكون بقدرة الإنسان على التمسك بإيمانه حين تشتد عليه الظروف، ويظهر لنا جلياً أن إبراهيم عليه السلام غداً أنموذجاً قرآنياً يتجسد فيه الاطمئنان إلى وعد الله تعالى مع قوة اليقين وصفاء البصيرة.

المطلب الثاني: ثبات مريم عليها السلام

يُعدُّ ثبات مريم عليها السلام من أدقّ النماذج القرآنية في تصوير الثبات النفسي عند اشتداد الابتلاء؛ إذ لم يكن ابتلاؤها متعلّقاً بخطر خارجي فحسب، ولا بمواجهة خصم ظاهر، وإنما كان ابتلاءً يمسُّ أعمق مواضع

الحساسية الإنسانية والاجتماعية، وهو موضع العرض، والشُّمعة، والطهارة، ومكانة الأسرة في نظر المجتمع، ومن هنا اكتسب هذا النموذج خصوصيته؛ لأنَّه يكشف عن ثبات النفس المؤمنة حين تعجز الأسباب الظاهرة عن الدفاع، ويشنُّ ضغط المجتمع، ولا يبقى للعبد إلا صدق التسليم، وحسن الظنِّ بالله، وانتظار الفرج من جهته.

وقد وصفها الله تعالى في آياتِ البعثة والطهارة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّلْمُ﴾ (التحریم: ١٢)، وقال سبحانه: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩١) أي: حفظته من الحلال والحرام (النسفي أبو حفص، ١٤٤٠هـ، ١٢/٤٣٣، الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٦/٣٥١).

وقد قدّم القرآن الكريم لهذا الابتلاء بيان المنزلة الإيمانية التي تبوأها مريم عليها السلام، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢) فذكرُ الاصطفاء والطهارة قبل عرض الابتلاء يدلُّ على أنَّ الثبات لم يكن موقفًا عارضًا، بل كان ثمرة إعدادٍ ربانيٍّ سابق، وبناء إيمانيٍّ راسخ، وتربية قائمة على العبادة والصدق والقنوت، فالنفس التي تتلقَّى الأمر الإلهي في ساعة الامتحان تحتاج قبل ذلك إلى تربية على اليقين، يعصمها من الانهيار، ويحفظها من الاضطراب عند مفاجأة البلاء، قال ابن كثير: "هذا إخبارٌ من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام، عن أمر الله لهم بذلك: أنَّ الله قد اصطفاهما، أي: اختارهما؛ لكثرة عبادتهما، وزهادهما، وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاهما ثانيًا مرة بعد مرة؛ لجلالتهما على نساء العالمين" (ابن كثير، ١٤٢٠هـ، ٢/٣٩).

وتبدأ ملامح هذا الثبات حين بُشِّرَت مريم عليها السلام بالولد من غير سبب بشري كما هي الحال عند باقي البشر، فكان ردّها: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (مريم: ٢٠) وليس في سؤالها اعتراضٌ على قدرة الله تعالى، وإنما هو استفهام من وقع المفاجأة، واستبعاد الأمر بحسب السنن المعتادة، ولذلك جاء الجواب حاسمًا في ربط الأمر بالمشيئة الإلهية المطلقة: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ (مريم: ٢١) ثم انتقل الابتلاء من مقام البشارة إلى مقام الحمل، قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (مريم: ٢٢) والمعنى: فاعتزلت بالذي حملته، وهو عيسى عليه السلام، وتنحّت به عن الناس مكانًا نائيًا قاصيًا من شدّة الأثر النفسي الذي عليها (الطبري، د.ت، ١٨/١٦٦، السمرقندي، د.ت، ٢/٣٧٢، الواحدي، ١٤١٥هـ، ٣/١٨٠).

وهذا الانتباز والبعد يكشف عن ثقل الحالة النفسية التي عاشتها؛ فهي تحمِلُ أمرًا خارقًا للعادة، وتعلم أنَّ الناس سيحكمون عليه بظاهرة، وأنَّ بيان الحقيقة لهم ليس في مقدور الأسباب المعتادة، فاجتمع عليها ألم الحمل، ووحشة المكان، واستحضار ما سيقع من اتِّهام، ومع ذلك بقي موقفها محكومًا بالتسليم، فلم تخرج عن أمر الله.

ثم يأتي وقت الولادة وألم المخاض، قال تعالى: ﴿فَاجْأَهَا أَلْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ (مريم: ٢٣) أي: يا ليتني متُّ قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادي المولود من غير بعل؛ لأنها خافت أن يُظنَّ بها السُّوء في دينها، أو لئلا يقع قومها بسببها في البهتان، وكنت نسيا منسيا: أي: شيئاً تافهاً، شأنه أن يُنسى ولا يُعتدَّ به، منسياً لا يخطر على بال أحد، وهذا نعت للمبالغة، قالت ذلك لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة من الناس (الطبري، ١٤٢٢هـ، ١٧١/١٨، صديق حسن خان، ١٤١٢هـ، ١٥١/٨، القاسمي، ١٤١٨هـ، ٩١/٧).

وهذه الكلمة لا تنقض معنى الثبات، بل تكشف عن طبيعته الإنسانية في التصوُّر القرآني؛ فالثبات لا يعني انتفاء الألم، ولا انعدام الحزن، ولا غياب الشعور بثقل الحنة، وإنما يعني بقاء القلب في دائرة الإيمان والتسليم، وإن ضاقت النفس بما تلقاه، فقد تمت مريم عليها السلام أن تكون نسياً منسياً لا فراراً من قضاء الله، بل استعظماً لما ينتظرها من إتهام في طهارتها، وإحساساً بنقل البلاء على نفس عفيفة اصطفاها الله وطهرها (ابن كثير، ١٤١٩هـ، ٢٢٣/٥، القاسمي، ١٤١٨هـ، ٩١/٧).

ثم كان الموقف الأشدُّ حين عادت مريم عليها السلام إلى قومها تحمِل ولدها، قال تعالى: ﴿فَأَنتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ (مريم: ٢٧)، وهذه العودة في ذاتها صورةٌ غالبيةٌ من صور الثبات؛ لأنها رجوعٌ إلى موطن الإتهام، ومواجهةٌ مباشرةٌ لاجتماع سيقراً الحادثة بميزان الظاهر، دون أن يملك أسباب التصديق بحقيقتها، وهذا الذي وقع، حيث قالوا: ﴿قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ يَتْلُوتَ هَلْوَنَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كُنْتَ أُمَّكَ بَعِيًّا﴾ (مريم: ٢٧-٢٨) فكان جواب مريم عليها السلام من أبلغ مظاهر الثبات النفسي؛ امتثلت لما أمرت به، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ (مريم: ٢٩) لما بالغوا في توبيخها سكنت وأشارت إلى عيسى عليه السلام أي: هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، قال ابن مسعود: لما لم يكن لها حجةٌ أشارت إليه؛ ليكون كلامه حجةً لها (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٥٣٠/٢١، الخازن، ١٤١٥هـ، ١٨٦/٣، السعدي، ١٤٢٢هـ، ٤٩٢).

قال السعدي: "وإنما أشارت لذلك؛ لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (مريم: ٢٦) فلمَّا أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٩)؛ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السرِّي، فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي إِلْكُتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠) فخطبهم بوصفه بالعبودية" (السعدي، ١٤٢٢هـ، ٤٩٢).

تكشف لنا قصة مريم عليها السلام أن الثبات النفسي ورسوخ الإيمان لا يظهر في أوقات السعة، وإنما تتجلى آثاره حين تشتد وطأة الابتلاء، فيستمد قوته من يقينه بربه ويتحول هذا اليقين إلى قوة تمنح النفس قدرتها على المضى مطمئنة رغم قوة الظروف، ومن ثم غدت مريم عليها السلام مثالاً للثقة بحكمة الله تعالى.

المطلب الثالث: ثبات النبي ﷺ

يمثل ثبات النبي ﷺ أعلى نماذج الثبات النفسي في القرآن الكريم؛ ومن ناظر سيرته ﷺ يجد هذا التقرير جلياً، بيناً، فقد واجه ﷺ صوراً متتابعة من الابتلاء؛ تكذيباً، واستهزاءً، وإيذاءً، وحصاراً، وإغراءً، وتحديداً، وفقداً، وقتالاً، ومع ذلك ظلّ ثابتاً في تبليغ رسالة ربه، لا تصرفه الشدائد عن مقصده، ولا تحمله الضغوط على التنازل عن شيء من مقتضى الوحي.

ومن أبرز مظاهر هذا الثبات ثباته ﷺ أمام ما تعرّض له من التكذيب والإعراض، مع شدة حرصه على هداية قومه، وهذا ما أخبر عنه القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْدِبُونَكَ وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ بَعَاثَ إِلَهُ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣)، وإنما جاءت هذه الآية تسلياً وتنبئاً للنبي ﷺ وتعزية عما يواجهه به قومه؛ لأنهم كانوا يعتقدون صدقه، وأنه ليس بكذاب، وإنما حملهم على تكذيبه في الظاهر الحسد والظلم (السمعي، ١٤١٨هـ، ٩٩/٢، الحازن، ١٤١٥هـ، ١٠٩/٢، ابن جزى، ١٤١٦هـ، ٢٥٩/١).

كما عالج القرآن ما كان يعتريه ﷺ من شدة الأسف على إعراض قومه، فقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦)، وهذه الآية لا تضعف معنى الثبات، بل تكشف عمقه؛ لأنّ ثبات النبي ﷺ كان ثباتاً ممتزجاً بحرص شديد على هداية الناس، وفي معنى الآية قولان: أحدهما: أي: قاتل نفسك، قاله ابن عباس، ومجاهد.

والثاني: أي: مخرج نفسك، قاله عطاء، وابن زيد (البلخي، ١٤٢٣هـ، ٥٧٣/٢، الماوردي، د.ت، ١٦٤/٤، السمعاني، ١٤١٨هـ، ٣٨/٤).

ودلالة الآية على الثبات النفسي تظهر من جهتين:

الأولى: أنها تثبت بشرية النبي ﷺ ورقة قلبه وتأثره بإعراض قومه، وهذا يُبين أنّ الثبات لا يناقض الشعور بالألم.

الثانية: أنها ترسم حداً لهذا التأثر، فلا يبلغ بالنفس مبلغ الهلاك أو الاضطراب، بل من مقتضيات الثبات النفسي القدرة على مواصلة الرسالة مع حضور الحزن، والقيام بالواجب مع شدة الأسف، والاحتفاظ بالاتزان الداخلي مع قسوة الإعراض والتكذيب، وقد قرّر هذا المعنى ابن كثير في قوله: "أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات" (ابن كثير، ١٤٢٠هـ، ١٣٧/٥).

ويظهر جانب آخر من هذا الثبات في أوقات الشدة العامة، ولا سيما عند اضطراب الصفوف واشتداد البلاء، وقد جاء في سياق غزوة أحد قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٤٤) فالآية مع ما فيها من تقريرٍ لحقيقة بشرية الرسول ﷺ تؤسس لمعنى عظيم في الثبات؛ وهو أنَّ الارتباط بالرسالة يجب أن يكون أرسخ من الارتباط بالأحداث الطارئة، وأنَّ الهزائم والجراح لا يجوز أن تتحوَّل إلى انقلاب في الموقف، أو نكوصٍ عن الطريق، وهذا المعنى كان حاضراً في ثباته ﷺ؛ إذ بقي قائداً للدعوة والأمة في أحوال القوة والضعف، والنصر والابتلاء، والاجتماع والاضطراب.

ومن أعظم نماذج الثبات النفسي للنبي ﷺ ما كان في الهجرة النبوية، وذلك لما خرج النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في الهجرة سارا ليلاً، حتى كان الغد اشتدَّ حرُّ الظهيرة وخلا الطريق، فنزلا عند صخرة لها ظلٌّ، فسوى أبو بكر للنبي ﷺ مكاناً ينام فيه، وبسط له فروة، ثم جعل يحرسه ويتفقد ما حوله، وبينما كان النبي ﷺ نائماً، مرَّ راع بغنمه، فسأله أبو بكر عن اللبن، فحلب له من شاة بعد أن نفذ ضرعها من الأذى، ثم بردَّ اللبن بالماء حتى استيقظ النبي ﷺ فسقاه حتى شرب، وبعد أن مالت الشمس ارتحلا.

ثم تبعهما سرافقة بن مالك يريد اللحاق بهما، فخاف أبو بكر رضي الله عنه وقال: أدركنا يا رسول الله! فقال له النبي ﷺ مطمئناً: "لا تحزن إنَّ الله معنا" [البخاري، ١٣٢٣/٣: ٣٤١٩، مسلم، ٢٣٠٩/٤: ٢٠٠٩].

وقد أنزل الله تعالى فيه قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَتَصَرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)، وتعدُّ هذه الصورة من أعلى صور الثبات النفسي في شخصية النبي ﷺ؛ إذ وردت في سياق الهجرة، حين اجتمعت أسباب الخوف الظاهرة؛ كقلة العدد، وشدة طلب المشركين، والاختفاء في الغار، وقرب العدو من موضعهما، ومع ذلك جاء الخطاب النبوي لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)، وهذا ثبات ونصر من الله تعالى، ولذا جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

قال ابن عاشور: "التفريع مؤذن بأنَّ السكينة أنزلت عقب الحلول في الغار، وأنها من النصر، إذ هي نصر نفساني، وإنما كان التأييد بجنود لم يروها نصراً جثمانياً، وليس يلزم أن يكون نزول السكينة عقب قوله: لا تحزن إنَّ الله معنا، بل إنَّ قوله ذلك هو من آثار سكينة الله التي أنزلت عليه، وتلك السكينة هي مظهر من مظاهر نصر الله إياه" (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ١٠/٢٠٣).

يتجلى لنا من سيرة النبي ﷺ أن حقيقة الثبات النفسي يكون في امتلاك النفس قدرةً راسخةً على تجاوز المضاعب دون أن تضعف عن أداء رسالتها، وأنها إذا استقرت في القلب تحولت إلى قوة تدفع صاحبها إلى

الاستقرار مهما تعاظمت العقبات، وهكذا غدا نبي الله محمد ﷺ أنموذجاً فريداً في الثبات، والمضي في تبليغ الدعوة بعزيمة لم تنل منها شدة الابتلاء.

تكشف لنا النماذج القرآنية المتمثلة في قصص ثبات سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومريم عليها السلام، ونبينا محمد ﷺ، عن تنوع صور الثبات النفسي، وتؤكد أنه ليس موفقاً عابراً تمليه الظروف، بل هو ثمرة يقين راسخة تمنح النفس قدرة على تجاوز المصاعب دون أن تفقد غايتها، كما تبرز هذه النماذج أن الحن على اختلاف صورها، قد تكون ميداناً تتجلى فيه قوة الإيمان ورسوخه.

الخاتمة:

الحمد لله الذي تفضل عليّ وأنعم بإتمام هذا البحث، وأسأل الله تعالى أن ينفعني به أولاً، ثم عموم الباحثين والدارسين، وقد خلصت من خلال هذا البحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، من أبرزها:

أولاً: أبرز النتائج

- ١- مفهوم الثبات النفسي يُعرف بأنه: استقرار ورسوخ النفس على حالة من الطمأنينة والائتزان، تمكّن الإنسان من المحافظة على سلامة تفكيره وانفعالاته وسلوكه، مع القدرة على مواجهة الشدائد والضغوطات دون اضطراب يخلّ بتوازنه أو يُضعف فاعليّته.
- ٢- تكمن أهمية الثبات النفسي في أنّه أساس تحقيق الطمأنينة والاستقرار الداخلي، كما أنّه من أعظم ما يقوّي الإنسان على مواجهة الأزمات والتحدّيات، وضبط القرارات.
- ٣- لا يتعارض الثبات النفسي مع ما يعرض للإنسان من خوف أو حزن أو ألم، وإنّما يظهر في قدرته على استيعاب تلك الانفعالات وضبط آثارها، والاستمرار في أداء واجبه دون انخيار أو انحراف.
- ٤- يمثّل الإيمان بالله تعالى الأساس الأوّل للثبات النفسي؛ إذ تستمدّ النفس من ذكر الله، واليقين بحكمته، والإيمان بقدره، وحسن التوكّل عليه أسباب الطمأنينة والقوّة في مواجهة الأزمات.
- ٥- لا يكتمل أثر الإيمان في بناء الثبات النفسي إلا بتربية عمليّة مستمرة، تقوم على الصبر، ومجاهدة الأهواء والشهوات، وكظم الغيظ، وضبط ردود الأفعال عند المواقف الضاغطة.
- ٦- يؤدّي المحيط الاجتماعي الصالح دوراً مؤثّراً في تثبيت النفس؛ من خلال الأخوة الإيمانية، والتناصر، والتكافل، والتراحم، وصحبة الصالحين، والمعاونة على تحمّل الأعباء ومواجهة الشدائد.
- ٧- كشف نموذج إبراهيم عليه السلام أنّ الثبات النفسي ثمرة اليقين والبرهان وكمال التسليم لله تعالى؛ إذ ثبت أمام سلطان الموروث الاجتماعي، وتهديد السُلطة، وشدة الابتلاء في النفس والولد.
- ٨- أظهر نموذج مريم عليها السلام أنّ شدة الألم والخوف من الاتّهام لا تنفي الثبات؛ فقد اجتمع في موقفها التأثّر الإنساني الفطري مع التسليم لأمر الله، والامتثال لتوجيهه، والثقة بنصره وتبرّئته.

٩- يمثِّلُ ثبات النبي ﷺ النموذج الأكمل للثبات النفسي؛ فقد تألَّم من تكذيب قومه وإعراضهم، غير أنَّ حزنه لم يصرفه عن تبليغ الرسالة، ولم يحمله على التراجع أو الإخلال بما أمره الله به.

ثانيًا: التوصيات

- ١- العناية بالدراسات القرآنية المتعلقة بالبناء النفسي للإنسان، ولا سيَّما مفاهيم السكينة والطمأنينة والتثبيت والصبر واليقين، ودراسة العلاقات الدلالية والتربوية بينها.
- ٢- الاستفادة من الأسس القرآنية للثبات النفسي في إعداد البرامج التربوية والدعوية والإرشادية الموجهة إلى الأفراد الذين يواجهون الأزمات والضغوط النفسية والاجتماعية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (١٤٢٢). زاد المسير في علم التفسير. ط١، دار الكتاب العربي: بيروت، لبنان.

ابن جزى، محمد بن أحمد الكلبي. (١٤١٦). التسهيل لعلوم التنزيل. ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم: بيروت، لبنان.

ابن سيده، علي بن إسماعيل. (١٤٢١). المحكم والمحيط الأعظم. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.
ابن عادل، عمر بن علي الحنبلي. (١٤١٩). اللباب في علوم الكتاب. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي. (١٩٨٤). التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد". ط١، الدار التونسية للنشر: تونس، تونس.

ابن عطية، عبد الحق بن غالب. (١٤٢٢). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

ابن فارس، أحمد بن فارس. (١٣٩٩). مقاييس اللغة. ط: بدون، دار الفكر: بيروت، لبنان.
ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (١٤٢٠). تفسير القرآن العظيم. ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع: الرياض، المملكة العربية السعودية.

أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي. (١٤٢٠). البحر المحيط. ط١، دار الفكر: بيروت، لبنان.
البخاري، محمد بن إسماعيل. (١٤٢٢). صحيح البخاري "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه". ط١، دار طوق النجاة: إسطنبول، تركيا.

البركتي، محمد عميم المجددي. (١٤٢٤). التعريفات الفقهية. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

- البعوي، الحسين بن مسعود. (١٤٢٠). معالم التنزيل في تفسير القرآن "تفسير البعوي". ط ١، دار إحياء التراث العربي: بيروت، لبنان.
- البلخي، مقاتل بن سليمان. (١٤٢٣). تفسير مقاتل بن سليمان. ط ١، دار إحياء التراث العربي: بيروت، لبنان.
- الثعلبي، أحمد بن محمد. (١٤٢٢). الكشف والبيان عن تفسير القرآن. ط ١، دار إحياء التراث العربي: بيروت، لبنان.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد. (١٤٠٧). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. ط ٤، دار العلم للملايين: بيروت، لبنان.
- الخان، علي بن محمد. (١٤١٥). لباب التأويل في معاني التنزيل. ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. (١٤٢٨) الذريعة إلى مكارم الشريعة. ط ١، دار السلام: القاهرة، مصر.
- الزجاج، إبراهيم بن السري. (١٤٠٨). معاني القرآن وإعرابه. ط ١، عالم الكتب: بيروت، لبنان.
- الزمخشري، محمود بن عمر جار الله. (١٤٠٧). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط ٣، دار الكتاب العربي: بيروت، لبنان.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (١٤٢٠). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ط ١، مؤسسة الرسالة: بيروت، لبنان.
- السمرقندي، نصر بن محمد أبو الليث. (د.ت). بحر العلوم.
- السمعاني، منصور بن محمد. (١٤١٨). تفسير القرآن. ط ١، دار الوطن: الرياض، السعودية.
- الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب الشافعي. (١٢٨٥). السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير. ط ١، مطبعة بولاق الأميرية: القاهرة، مصر.
- الصُّحاري، سلمة بن مسلم العوتبي. (١٤٢٠). الإبانة في اللغة العربية. ط ١، وزارة التراث القومي والثقافة: مسقط، سلطنة عُمان.
- الطبري، محمد بن جرير. (د. ت). جامع البيان في تأويل القرآن. مؤسسة الرسالة: بيروت، لبنان.
- الطبي، الحسين بن عبد الله. (١٤١٧). شرح الطبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ "الكاشف عن حقائق السنن". ط ١، مكتبة نزار مصطفى الباز: مكة المكرمة، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- عبد المنعم، محمود عبد الرحمن. (١٤١٩). معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية. دار الفضيلة: القاهرة، مصر.
- الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد (د. ت). إحياء علوم الدين. ط: بدون، دار المعرفة: بيروت، لبنان.
- الفخر الرازي، محمد بن عمر. (١٤٢٠). مفاتيح الغيب التفسير الكبير. ط ٣، دار إحياء التراث العربي: بيروت، لبنان.

الفيومي، أحمد بن محمد (د. ت). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. (د. ط)، المكتبة العلمية: بيروت، لبنان.

القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد. (١٤١٨). محاسن التأويل. ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.
القرطبي، محمد بن أحمد. (١٣٨٤). الجامع لأحكام القرآن. ط ٢، دار الكتب المصرية: القاهرة، مصر.
القنّي النيسابوري، الحسن بن محمد. (١٤١٦). غرائب القرآن ورغائب الفرقان. ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

القنّوجي، محمد صديق خان حسن. (١٤١٢). فتح البيان في مقاصد القرآن. المكتبة العصرية للطباعة والنشر: صيدا، بيروت، لبنان.
الماوردي، علي بن محمد. (د. ت). تفسير الماوردي النكت والعيون. ط: بدون، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري. (١٣٧٤). صحيح مسلم "المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ". (د. ط)، دار إحياء التراث العربي: بيروت، لبنان.
المنّاوي، عبد الرؤوف بن علي. (١٤١٠). التوقيف على مهمات التعاريف. ط ١، عالم الكتب: القاهرة، مصر.
النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد. (١٤١٩). تفسير النسفي "مدارك التنزيل وحقائق التأويل". ط ١، دار الكلم الطيب: بيروت، لبنان.
النسفي، عمر بن محمد أبو حفص. (١٤٤٠). التيسير في التفسير. ط ١، دار الباب للدراسات وتحقيق التراث: إسطنبول، تركيا.
الواحدي، علي بن أحمد. (١٤١٥). الوسيط في تفسير القرآن المجيد. ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.